

الرسافي، والحر، ووحدة الوجود للأستاذ دريني خشبة

الدنيا حر ١ والكلام في الفلسفة ، وفي وحدة الوجود كما يفهمها الأستاذ الفاضل ، معروف الرسافي ، يزيد رهق هذا الصيف القاهري الفائظ ، والناس لهذا السبب محتاجون إلى ما يسليهم لا إلى ما يكرههم ، ويؤجج الدنيا من حولهم ، ويزيدها سموماً إلى سموم ...

إلا أننا مع ذلك لا نرى بداً من العودة إلى هذه القضية ، قضية الأستاذ الفاضل ، معروف الرسافي ، أو قضية وحدة الوجود ، مكرهين ، بعد إذ حسبنا أننا قلنا فيها الكلمة الأخيرة ، أو كلمتنا نحن الأخيرة على أقل تقدير ...

فأستاذنا الفاضل المحبوب (نقول الحداد) بتفضل فيشرف هذه القضية بالاشتراك فيها ، في حيز خاص ، ويلاحظ أننا لم نورد تعريفاً لنظرية وحدة الوجود ، ولا انتبسنا هذا التعريف عن كتاب الرسافي (إن كان الرسافي قد عرفها) ثم قال حفظه الله إن مقالنا الثالث زاد النظرية غموضاً ، بل جعلها (غريب وراء سحب تلك الفلسفات السفسافية التي يمجز القاري عن أن يحصل منها معنى معقولاً) . ثم أخذ الأستاذ الجليل يفيض علينا بعد ذلك من علمه الغزير الذي طالما انتفعنا به ، شارحاً رأيه ، أو رأى العلم الحديث ، في نشأة الخليقة ، مما لا نعرض له هنا بخير أو شر ... لأن الدنيا حر ، كما بدأنا هذه الكلمة ، ولأن الرجل الذي لا يعترف بالوجود إلا للمادة ، ويقرر أنه ليس وراء الطبيعة شيء ... وأنها — أي الطبيعة — هي كل شيء وأنه يعتبر مسألة نسبة الله إلى الوجود ، أو نسبة الوجود إلى الله مسألة فقهية لا هوتية لا يعرض لها بتاتاً ... ذلك الرجل الفاضل الذي يقول هذا جازماً به غير متردد فيه ، لا بد أن يكون بطل هذا الموضوع . والبطولة في هذه الموضوعات الشوائك تفتح أبواباً ليس في فتحها خير لأحد ، لأنها تفضي إلى مجادلات فارغة ، وتولد خصومات مره . بل ربما أحدثت فتنة لا نصيبن الذين ظلموا خاصة

ونحب أن نوضح موقفنا في هذه القضية التي ابتلانا بها

الأستاذ الفاضل معروف الرسافي ، كي يقتصد بعض كتابنا الأجلاء ، وأدبائنا المحترمين ، فلا يحرفوها عن مواضعها ، ولا يعمدوا بها عما أردنا أن نحصرها فيه . فقد ألف الأستاذ الرسافي كتابه تعليقا على كتابي صدقتنا الأعز الدكتور زكي مبارك : التصوف الإسلامي والنثر الفني ، ثم تعليقا على كتاب لمستشرق إيطالي يدعى (لثونا كابتاني) سماه (التاريخ الإسلامي) ، والتعليقات على الكتابين الأول والثالث تعليقات من وجهة نظر تعد إسلامية بحتة ، وقد ذكرنا شيئا كثيراً عن معتقدات الأستاذ الرسافي الذي لا يفهم معنى للآية : لا إله إلا الله ... ويرى الصحيح أن يقال : لا إله إلا الوجود . وينكر الوحي على الصورة التي يؤمن بها المسلمون ، وينكر أن القرآن كلام الله . ويكرر عبارة ... قال محمد في القرآن ، في معظم صفحات كتابه ، ثم يفكر البعث على صورته الإسلامية ، وينكر الحساب والثواب والعقاب ، ويؤولها تأويلاً سخيفاً مضحكاً أشربنا إليه فيما كتبنا من قبل . ويؤمن — كما نقله بحروفه من مقالنا الثاني (العدد ٥٧١) — بوحدة الوجود فيقول : « إن البحث والتفكير قد ألجأني إلجاء لا محيص عنه إلى الإيمان بوحدة الوجود (ص ١١) » ، وأن الله هو الوجود المطلق اللانهائي (ص ١٣) ، ويدعي أن كل شيء في هذا العالم جزء من الله ، أو أن الخلوقات « مظاهر للوجود الكلي » كظواهر الأمواج لماء البحر المائج ، (وقد فانتنا أن نذكر أن هذا التشبيه ليس من اختراع الرسافي ، بل إنه قد أخذه عن شيخه الفيلسوف أحد الفائلين بهذا الإفك — ولا يؤاخذنا الأستاذ زكريا — (كتاب الحجج النقلية والعقلية للعلامة ابن تيمية ص ٧٩) ، وهذه هي وحدة الوجود التي يؤمن بها الرسافي ، الله هو العالم والعالم هو الله ، وأن ممن قال ذلك في القرآن في سورة الحديد : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ؛ فإن هذه الآية تدل بمفهومها دلالة صريحة على أن لا موجود إلا الله ... هو الأول الذي ليس له بداية ، والآخر الذي ليس له نهاية ، وليس معنى هذا إلا أنه هو السرمدي اللانهائي ، وهو الظاهر الذي نراه بأعيننا وندركه بحواسنا ، (أي نراه ونشمه ونسمعه ونذوقه ونحسه ، ولا أدرى ماذا

أيضاً ١) والباطن الذي لا تراه ولا ندركه ، وليس معنى هذا إلا أنه هو كل شيء ، وأنه لا موجود غيره . ونحن إذا أخذنا صفو المعنى من عبارة الآية قلنا بأرب الله هو الموجود الكلى المطلق اللانهاى ، وأنه لا موجود غيره . هذه هي وحدة الوجود التى هي أساس مذهب التصوف وهذا منشؤها « (بحروفه من الرسائل ص ١٣)

وقد فرع الرصافى من هذه النظرية كل ما ذهب إليه من إنكار ما أنكر من صميم العقائد الإسلامية التى تخرج منكرها من حظيرة الإسلام ، ثم فرع منها تساوى المتضادات ، فالخير مثل الشر ، ومصيرهما واحد ، والتقى مثل الدعارة ، والكفر مثل الإيمان ، والأبيض مثل الأسود ، والعقل مثل الجنون ، وتفكير العلماء المبهذين مثل تحريف الجهلاء المخرفين ، ولا فرق بين فضيلة ورذيلة . والمغفل لهذا السبب ، هو الذى يحرم نفسه من لذة أتيت له ، سواء أتاحها له الرحمن أو هيأها له الشيطان ...

والأستاذ الفاضل معروف الرصافى ، بدعونا فى آخر كتابه إلى الأخذ بأرائه هذه ، ويعزى غفلة المسلمين وتأخرهم إلى التمسك بحرفية الإسلام وعدم تأويله كما تزخرف له الأباطيل التى فرعها عن تلك النظرية . وقد ذكرنا فى مقالنا الأول ، كما ذكرنا فى مقالنا الأخير أنه لولا هذه الدعوة لأهملنا الرد على ترهاته إهمالاً تاماً ... لأننا لسنا موكابين بأفهام الناس ، ولا جعلنا الله قوامين على حربة الفسكر

من هذا يرى أستاذنا الفاضل المحبوب نقولاً الحداد أن القضية قضية إسلامية ، زعم الرجل المسلم الذى أثارها - أنها من تفكير رسول المسلمين ، وأن متصوفة المسلمين هم الذين أذاعوا بها ونشروها ، مما اضطرنا إلى نقض هذا الزعم بإثبات وجودها فى الفلسفة اليونانية ... فى ذلك المقال الذى لا أدرى والله كيف زاد النظرية غموضاً

ومن هذا يرى أستاذنا الفاضل المحبوب نقولاً الحداد ، أننا قوم مسلمون ، قام فينا رجل ينقض لنا معتقداتنا ، ويزعى لنا أن الخير والبر والجمال والحلم والبط والأوز والهوام والضفادع وكل ما يدخل فيها ويخرج منها هو جزم

من الله الذى نعبد ونؤمن به ... وأنتا نستطيع أن ندرك هذا الإله فنراه ونشمه ونتذوقه ونسمعه ونحسه ونأكله ونشربه ونلفظه ونبنى به بيوتنا بجميع غرفها وجميع « مرافقها » فنقام فيه ونخرج منه - ولا نخرج منه إلا إليه ! - ثم يأتى يوم فنهدهم !

أفإن زعم لنا هذا الرجل تلك المزاعم ، وزعم لنا أن رسولنا الكريم هو صاحب هذا اللغو . وأن ما نؤمن به من إله قدير خلق هذا العالم ولا يعقل أنه هو ... أو هو إياه ! - باطل أوقعنا فيه قصر نظرنا . ثم غلا بعد ذلك فهدم المعايير الأخلاقية بقوله فى تساوى المتضادات ... فهل يوافق أستاذنا الجليل المحبوب ، « نقولاً حداد » على ترك هذا الإفك ، يسم عقول المسلمين ، وإغفال تلك الأراجيف نميت بالفضائل التى يحثنا عليها ديننا الكريم القويم ؟!

لست أدرى لماذا أوجه هذا الحديث كله إلى الأستاذ نقولاً الحداد ، ولا أوجه شيئاً منه إلى السكاتب الأديب الفاضل الأستاذ زكريا إبراهيم (اليساس فى الآداب والفلسفة بدرجة الشرف الأولى) الذى طالما أثبت على رفاقته الجميلة لأستاذنا الزيات ، شفاء الله وعافاه ، وحفظه للأدب والدين ، وإن أنكر الرصافى النوار فائدة الصلوات والأدعية

لست أدرى لماذا لا أوجه شيئاً من هذا الحديث إلى أختينا الأستاذة زكريا ؟! ألكونه جعلنا فى كلمته الطيبة من العوام الذين يرمون الناس بالإلحاد ويعنحونهم ألقابه التى لا تكافهم شيئاً ؟ أم لكونه جعلنا نكرة حيث تفضل علينا بتلك الإشارة العظيمة السكية التى سوف تكتبنا الخلود إلا هذا ولا ذاك ... فنحن مع ذلك نعترف بقيمة ما قرأناه لهذا الأديب المفكر المذهب ، ولكننا بالرغم من حسن رأينا فيه ، نصر على توجيه السؤال التالى إليه :

أيؤمن حضرتك بأن هذا العالم غير موجود؟ وبما انتهى إليه ابن عربى من أن العالم متوهم ماله وجود حقيق ، لأنه ليس ثمة غير حقيقة واحدة لا تنكسر ولا تتغير ، وهذه الحقيقة الواحدة هي الله أو الحق ، وأنه ما ثم إلا الله الواجب الوجود ، الواحد بذاته ... إلخ ؟